الفصل الخامس

موقف اليمن الشعبي

- **المبحث الأول:** نماذج من مواقف اليمنيين المقيمين في مصر وبلاد الشام.

أولاً: نجم الدين عمارة اليمني.

ثانيًا: الإمام محمد بن يحيى الزبيدي.

ثالثًا: الشيخ عبدالرحمن اليمني.

- **المبحث الثاني:** نماذج محلية لمواقف أهل اليمن.

أولاً: الشيخ الجليل أبومحمد سفيان الأبيني.

ثانيًا: الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة.

ثالثًا: نموذج لدور المرأة في دعم الجهاد ضد الصليبيين.

موقف اليمن الشعبي

إنّ من الصعوبة بمكان تتبع أعمال الأفراد ممن لا يمثلون الهيئة الحاكمة في العصر الإسلامي، فالمؤرخ هنا يتعامل مع عصر اختفت فيه الحواجز بين البلدان، مما جعل آلاف الناس المغمورين يمرون من أمام التاريخ من دون أن يسجل حتى وجودهم في تلك المدة، إلا أنه لحسن الحظ أن الحضارة الإسلامية قدمت لنا قوائم ضخمة من عناوين مؤلفات عكف أصحابها على تتبع تاريخ طبقات وفئات متعددة من الناس ابتداءً بالخلفاء والملوك، ومرورًا بالعلماء والأدباء، وانتهاءً بالمغنين والمغنيات[١].

وبالنسبة إلى موضوعنا وهو التقصي في المصادر التاريخية لمواقف سجلت لليمنيين من عامة الناس، أفرادًا كانوا أو جماعات، في سبيل نصرة إخوانهم بمصر وبلاد الشام في جهادهم ضد الصليبيين سواءً بالسيف أم الكلمة من وعظ ونصح وشعر وحتى الدعاء الذي هو سلاح كل مؤمن، فقد كان تتبع مثل هذه المواقف في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي متيسرًا نظرًا لسهولة تمييز أهل اليمن من بين الجموع التي انطلقت من الجزيرة العربية لفتح العالم، فتمكن المؤرخون من تسجيل مواقف أهل اليمن الجهادية في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الإسلام استنادًا إلى درايتهم بأنساب تلك القبائل وألقابها ومواطنها، كما أن بعض اليمنيين نبغوا وبرزوا في معارك الفتح الإسلامي قادة وأمراء للجيوش

(١) عثمان (محمد فتحي): المدخل إلى التاريخ الإسلامي، دار النفائس - بيروت، ط٢- ١٩٩٢م، ص١١٣- ١٥٨.

الإسلامية[١].

إلا أن ميزة تتبع اليمنيين في الأمصار صارت أكثر صعوبة بمرور الوقت وتوالي القرون، حيث استقر كثير من أهل اليمن في تلك الأمصار، حتى صاروا ينسبون إليها، الأمر الذي انسحب بدوره على أية محاولة لتمييز الجنود اليمنيين الذين شاركوا في الجهاد ضد الصليبيين خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، لا سيما وقد انضوى تحت ألوية جيوشهم مقاتلون من مختلف الأجناس من عرب وأكراد وترك ومغاربة، فضلاً عن وجود المتطوعة من مختلف البلدان في تلك الجيوش، مما يوجد احتمالاً بوجود عدد من اليمنيين بين صفوفهم، ونشير هنا إلى ما ذكرناه في الفصل الثالث عن وجود جيش يمني يرابط في مصر إسهاما من السلطان المظفر في نصرة إخوانه المسلمين في مصر وبلاد الشام، الذي يعد موقفًا عسكريًا رسميًا من الدولة الرسولية، وهناك أفراد من أهل اليمن كان لهم إسهام في نصرة إخوانهم بالكلمة عبر الوعظ وتقديم النصيحة للأمراء وقول الحق وإن كان مرًا، وأحيانًا عبر الشعر تمجيدًا للانتصارات التي يحققها الملوك والأمراء على العدو.

لقد ظل أهل اليمن متفاعلين مع الأحداث التي تعيشها الأمة، ويسهمون في الدفاع عنها ضد الأخطار التي كانت تتهددها حسب ما تتيحه لهم ظروف

(١) الحديثي (نزار عبداللطيف): أهل اليمن في الإسلام دورهم واستقرارهم في الأمصار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، د.ط - د.ت، ص١٢٥-١٣٨؛ الشجاع (د.عبدالرحمن عبدالواحد): تاريخ اليمن في صدر الإسلام من البعثة المحمدية حتى قيام الدولة الأموية، دار الفكر - دمشق، ط١- ١٩٨٧م، ص٢٩٩-٣١٠.

ذلك العصر، انطلاقًا من إحساسهم بأن المسلمين أمة واحدة، وأنهم كالجسد الواحد في مواجهة التحديات التي يواجهونها رغم تطرف موقع اليمن في الركن الجنوبي من ديار الإسلام، وبعدها جغرافيًا عن مواطن الأحداث في مصر وبلاد الشام والعراق، ما كان له أثره في كيفية تعامل أهل اليمن مع تلك التحديات وإدراكهم الظروف المحيطة بها ومدى خطورتها على الأمة الإسلامية، فعلى سبيل المثال يروي لنا الجندي عن أحد العلماء من أهل اليمن قائلا: " . . .كنت بمكة عام كذا وأربعمائة، فكنت يومًا في الحرم عند القيلولة في شدة الحرّ وما في المطاف إلا رجل أو رجلان، وإذا برجل عليه طمران مشتمل على رأسه أقبل يسير رويدًا حتى قرب من الركن الأسود ولا أعلم ما يريد، وأنا أنظر إليه، فأخرج من تحته معولاً وضرب الركن ضربة شديدة. . . ثم رفع يده يريد يضربه ثانيًا ليذهبه، فابتدره رجل من أهل اليمن من السكاسك كان في الطواف فطعنه بخنجر كان معه طعنة عظيمة فأسقطه، فأقبل الناس من نواحي المسجد لينظروه فوجدوه قد مات، وهو رومي معه معول عظيم قد حدّه ليقطع به الركن ثم أخرجوه من الحرم، وجمعوا له الحطب، وأحرقوه بالنار. . ."[1].

وهذه الحادثة التي رواها الجندي هي نفس ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة (٤١٣هـ/ ١٠٢٣م) قائلا: " . . .جرت كائنة غريبة عظيمة ومصيبة عامة، وهي أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، وذلك أنه لما كان يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت. . . فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه؛

(١) الجندي: السلوك، ج١/ ص٢٧٧.

وذلك لأنه كان رجلاً طويلاً جسيمًا، أحمر اللون، أشقر الشعر[١]، وعلى باب الجامع جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل... فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه به، وتكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه قطعًا..."[٢].

إن هذه الرواية تكشف لنا بجلاء الاندفاع الطبيعي لدى أهل اليمن للذود عن مقدسات الأمة، على الرغم من عدم توافر القدر الكافي من المعلومات لديهم لتكوين صورة كاملة عن خلفيات تلك التحديات ومن وراءها.

إلا أن ذلك لا يعني عدم إدراك أهل اليمن أهمية الجهاد والتصدي لأعداء الإسلام والذود عن الديار والمقدسات، فقد تناول علماء الإسلام الجهاد عمومًا وواجب الأمة نحوه من خلال بعض مؤلفاتهم، ومنهم علماء اليمن، فالإمام يحيى بن أبي الخير العمراني[٣] الذي عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وعاصر سقوط بلاد الشام في أيدي الصليبيين ذكر في كتابه البيان وبالتحديد في باب الجهاد "...الجهاد فرض من فروض الكفاية منذ فرضه الله تعالى إلى وقتنا هذا... ومتى علم الإمام

(١) لعل هذا هو السبب في الاشتباه بأنه رومي كما جاء في رواية الجندي.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٦.
(٣) الإمام أبو الحسين جمال الإسلام شمس الشريعة يحيى بن أبي الخير سالم بن أسعد العمراني (٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م - ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م)، ولد بمصنعة سَيْر، وتفقه على يد جماعة من العلماء، منهم خاله ابن عثمان العمراني، وموسى بن علي الصعبي، وعبدالله بن أحمد الزبراني وعنه أخذ (المهذب) و(اللمع) و(الملخص)، اشتغل بالتدريس، وذاع صيته بين الناس، ولا سيما بعد تأليفه كتابه (البيان) الذي بلغت شهرته العراق، اشتهر بتصديه لأصحاب الكلام من المعتزلة من خلال بعض مؤلفاته ومناظراته، أثنى عليه معاصروه من العلماء والحكام؛ انظر: الرسولي، العطايا السنية، ص٦٧٠- ٦٧٤.

في المسلمين قوةً، وعددًا، وقوةً في نية القتال فالمستحب له: أن يكثر من الجهاد... وإن علم الإمام في المسلمين قلة عدد، أو ضعفًا في نياتهم، أو فيما يحتاجون إليه... جاز له أن يؤخر الجهاد أكثر من سنة إلى أن يكثر عددهم، وتقوى نياتهم، أو يوجد ما يحتاج إليه في القتال؛ لأن القصد بالقتال النكاية في العدو، فإذا قاتلهم مع وجود هذه الأشياء لم يؤمن أن تكون النكاية في المسلمين..."[(١)].

فما ذكره الإمام العمراني هو نفس رأي علماء الإسلام في فقه الجهاد عندما تتعرض الأمة إلى غزو من عدو أكثر عددًا وقوة، فيصبح الإعداد والجاهزية شرطًا لا يتم الجهاد إلا به، وإلا عُدَّ ذلك تغريرًا بالمسلمين ورميًا بأيديهم إلى التهلكة.

وعلى الرغم من أن الإمام ابن تيمية أبدى أسفه على ما آل إليه موقف أهل اليمن مع بداية القرن (الثامن الهجري) من التخاذل عن الجهاد بقوله: "...وذلك أن سكان اليمن في هذا الوقت ضعاف، عاجزون عن الجهاد، أو مضيعون له، وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد [مصر] حتى ذكر أنهم أرسلوا بالسمع والطاعة لهؤلاء..."[(٢)]، إلا أنه علل ذلك بضعف حكام اليمن ومتابعتهم حكام مصر خلال الربع الأول من القرن (الثامن الهجري)، كما أن تحديده الزمن بـ(هذا الوقت) يدل على تغير حال أهل اليمن عما كانوا عليه في زمن قريب عليه أو على من روى له إسهامات أهل اليمن في

(١) العمراني (أبو الحسين يحي بن أبي الخير بن سالم): البيان في مذهب الإمام الشافعي، اعتنى به: قاسم محمد النوري، دار المنهاج - جدة، ط٢- د.ت - مج١٢/ ٩٩، ١٠١، ١٠٣.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى، مج١٥/ ج٢٨/ ٢٩٠.

الجهاد ضد أعداء الأمة.

واستنادًا إلى ما سبق فإنه يمكن القول بأنه متى توافرت لفرد أو جماعة من أهل اليمن الفرصة لتقديم المساعدة لإخوانهم المتصدين للعدوان الصليبي في مصر وبلاد الشام؛ فإنهم كانوا يسارعون إلى ذلك انطلاقًا من مبدأ الأخوة الإسلامية وبراءةً للذمة أمام الله، وسنتناول فيما يلي عددًا من النماذج لمواقف أهل اليمن الفردية سواء أولئك الذين سكنوا مصر وبلاد الشام أم ممن لم يستقروا في غير أرض اليمن.

المبحث الأول

نماذج من مواقف اليمنيين المقيمين في مصر وبلاد الشام

أولاً- نجم الدين عمارة اليمني:

نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي، من تهامة اليمن بمدينة يقال لها مرطان من وادي وساع، وبعدها عن مكة في مهب الجنوب أحد عشر يومًا، و بها ولد وترعرع، ولد في بضع عشرة وخمسمائة للهجرة[١]، عاش في بيئة اشتهرت بالفصاحة، ولما شبّ أرسله والده إلى زبيد فأقام فيها ثلاث سنين درس فيها مذهب الشافعي في الفقه والفرائض التي برع فيها وصنف فيها كتابًا ظل يدرّس في اليمن[٢]. كما اطلع على قدر من الأدب كان نواة لموهبته الشعرية التي اكتشفها الأديب أبو بكر العندي عندما قدم عمارة عدن للتجارة وطلب الكسب، فأكرمه الأديب، وقدمه إلى الداعي محمد بن سبأ، يقول عمارة: "فأعلمته [الأديب] أني لست بشاعر، فلم يزل يلازمني، ويحسن لي، حتى عملت قصيدًا غير مرضٍ، فأعرض الأديب عنه، وعمل على لساني قصيدًا مرضيًا ذكر به المنازل من زبيد إلى عدن، وهنأ به الداعي محمد بن سبأ بإعراسه بابنة الشيخ بلال بألفاظ خاصية وكتابية ثم تولى عني نشيدها... وأخذ لي جائزة من الداعي بلال وطيبًا، واشترى لي بضاعةً من المال الذي كان معي، ثم لما عزمت على السفر قال لي يا هذا إنك قد اتسمت عند القوم

(١) هذا هو نسبه كما أورده بنفسه في كتابه "النكت"؛ انظر: ص٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٣/ ص٤٣١؛ الجندي: السلوك، ج١/ ص٣٦٠.
(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص٢٣.

بسمة شاعر فطالع كتب الأدب ولا تجمد على الفقه..."[١]، ومنذ ذلك الوقت اهتم عمارة بالأدب والشعر حتى صار عينًا من أعيان زمانه، لم يزل مصاحبًا لآل زريع خاصة، ولم يكد يشهر له شعر بأحد من حكام اليمن غيرهم[٢].

وبلغ من ثقة بني زريع به أن حمل رسائلهم إلى الأشراف في مكة، الذين أعجبوا به وبفصاحته، فصار يترسل بينهم وبين الخلفاء الفاطميين في مصر، وقد كانت هذه الفرصة التي أتيحت له بداية مرحلة جديدة من حياته، حيث صارت فصاحة عمارة وشعره مفتاح دخوله إلى البلاط الفاطمي، وذلك حين نالت قصيدته التي يقول في مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدًا يقوم بما أولت من النعم

استحسان الخليفة الفاطمي الفائز[٣] ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك[٤]، ففتحت أمام عمارة أبواب مصر التي أحبها، فسكنها منذ سنة (٥٥١هـ/ ١١٥٥م)، وصحب الخلفاء الفاطميين ووزراءهم وكبار رجال دولتهم مادحًا إياهم بغرر القصائد، فانهالت عليه العطايا حتى عاش في ترف

(١) عمارة: ملحق المفيد، ص٣٢٨.
(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص٣٢٨؛ الجندي: المصدر السابق، ج١/ ص٣٦٠.
(٣) الفائز بنصر الله (٥٤٨هـ/ ١١٥٢م - ٥٥٥هـ/ ١١٥٩م): أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر، تولى الخلافة بعد مقتل أبيه وهو بعد طفل، وابتلي بالصرع فضلاً عن تسلط وزرائه عليه؛ انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٣/ ص٤٩١- ٤٩٤.
(٤) الصالح بن زريك (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م - ٥٥٥هـ/ ١١٥٩م): أبو الغارات طلائع بن رزيك، كان واليًا بِمنية بني خصيب من أعمل الصعيد، وكان فاضلاً سمحًا في العطاء، تولى الوزارة للعاضد، وزوجه ابنته، ولكن العاضد دبر اغتياله سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)؛ انظر: ابن خلكان، المصدر نفسه، مج٢/ ص٥٢٦- ٥٢٩ .

من العيش[١].

واستقر المطاف بعمارة في مصر، وارتفعت مكانته في دولة الفاطميين، ليس فقط لأنه شاعر يحيي مجالسهم بالمديح وروائع الشعر، بل صار مستشارًا للحكومة الفاطمية في شؤون الحجاز واليمن التي لم تنقطع صلته بها لا سيما أصحاب عدن من آل زريع، الذين استغل نفوذه في القاهرة لخدمتهم وتحسين علاقتهم بالخلافة الفاطمية ووزرائها وتسهيل مهام سفرائهم إليها[٢]، حتى إن القاضي الفاضل اقترح عليه أن يؤلف كتابًا يتضمن أخبار اليمن، فألف عمارة كتابه المفيد[٣].

وقد عاش عمارة خلال استقراره في مصر العديد من الأحداث التي شهدتها تلك البلاد ولا سيما ما يتعلق منها بمحاولات الصليبيين المتكررة لاحتلال مصر، فوضع عمارة موهبته الشعرية في خدمة واجب الجهاد مادحًا أولي الأمر في مصر لتصديهم لتلك الهجمات الصليبية - رغم وجود محاولات أخرى للمدح إن كان غرضه فقط المدح - فمن ذلك قوله[٤] في بعض آل رزيك إثر تصديه لغارة صليبية على حدود مصر[٥]:

---

(١) عمارة النكت، ص٣٢- ٣٥؛ ابن خلكان: المصدر السابق، مج٣/ ص٤٣٢- ٤٣٣.
(٢) عمارة المصدر نفسه، ص٩١.
(٣) عمارة: المفيد، ص٤٥؛ الجندي: السلوك، ج١/ ص٣٦٠- ٣٦١.
(٤) عمارة: النكت، ص٤٢.
(٥) ويقصد به الوزير الملك العادل رزيك بن طلائع (٥٥٦هـ/ ١١٦١م - ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)، وعلى الرغم من أن عمارة لم يذكر السنة التي تمت فيها تلك الغارة فإنه من المرجح أنها كانت غارة استطلاعية قام بها بلدوين الثالث (٥٣٩هـ/ ١١٤٣م - ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) إثر استيلائه على عسقلان في (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) ليمهد لغزو مصر؛ انظر: عاشور، الحركة الصليبية، ج١/ ص٥٣١.

أنت الذي يعقد الإسلام خنصره عليه إن حل خطب أو طرا وطرُ
متوج تشرف الدنيا بطلعته وتخجل الشمس مهما لاح والقمرُ
كأن أخلاقه من حسن خلقته صيغت فقد وافقت الأفعال والصورُ
إذا أقامت على ثغر صوارمه فللنوائب عن سكانه سفرُ
أغرت قبل أبي الغارات مقتحمًا للهول تستصغر الجُلى وتحتقرُ
فكان شمسًا وكنت الفجر يقدمها والفجر في الجو قبل الشمس ينتشرُ
ومنها وحين أبليت في اللحاق به والنصر يقسم لا فاتوه والظفرُ

وفي سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) قاد الملك عموري الأول (٥٥٧هـ/ ١١٦٢م - ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) حملة للاستيلاء على مصر، متذرعًا بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بدفع الجزية السنوية المقررة عليها من أيام سلفه بلدوين الثالث، وكان الوزير في مصر آنذاك أبو الأشبال ضرغام الذي استغل فيضان النيل فأغرق أراضي الدلتا بالمياه، مما أجبر عموري الأول على الانسحاب إلى فلسطين[١]، وقد خلد عمارة ذلك النصر الذي حققه ضرغام في قصيدة جاء فيها[٢]:

أطفأت جمرتها بأخوتك الأولى يتسنمون غوارب الأهوال
لم أدر والتشبيه يقصر عنهم أغيوث نُزل أم ليوث نزالُ

كما روى لنا عمارة بعض الأحداث التي عاشتها مصر في أثناء ما عرف بالسباق بين نور الدين زنكي وعموري الأول حول الاستيلاء على مصر، وقد امتدت أحداث ذلك السباق خلال المدة بين (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م - ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) مدح خلالها عمارة الوزير شاور بعددٍ من القصائد كان

(١) عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٥٣١.
(٢) عمارة: النكت، ص٧٥.

من أبرزها قصيدته التي يقول في مطلعها : (أسمع بذا الفتح المبين وأبصر)، جاء فيها :

ضجر الحديد من الحديد وشاورٌ من نصر دين محمد لم يضجر[١]

وعندما تولى الملك الناصر صلاح الدين الوزارة في مصر تمكن بفضل موهبته السياسية والعسكرية من صد هجوم الحلف (الصليبي - البيزنطي) على دمياط سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)، كما تمكن من استرداد ميناء أيلة سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) مما كان له أكبر الأثر في تصاعد شعبية صلاح الدين في مصر، فتسابق الشعراء للتعبير عن تقديرهم لذلك البطل الذي قلب ميزان القوى السياسية والعسكرية في المنطقة، ومن هؤلاء الشعراء عمارة اليمني الذي قام مادحًا الوزير الملك الناصر صلاح الدين بقصيدته التي يقول في مطلعها :

فؤاد بنار الشوق والوجد يحرق أراق كرى الأجفان وهو مؤرقُ

ومنها :

تركت قلوب المشركين خوافقًا وبات لواء النصر فوقك يخفقُ
لئن سكن الإسلام جأشًا فإنه بما قد تركتم خاطر الكفر يقلقُ
سمت بصلاح الدين ملة أحمد وطائرها فوق السماك محلق

وفي مناسبة أخرى يقول عمارة في قصيدته : (لك الحسب الباقي على عقب الدهر)[٢]

حمى الله منكم عزمة أسدية فككتم بها الإسلام من ربقة الكفر

---

(١) عمارة: المصدر السابق، ص٢٩٩- ٣٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٧٢؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص١٦٨.
(٢) عمارة: النكت، ٢٧٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ١٨٨- ١٨٩.

لئن نصبوا في البر جسرًا فإنكم عبرتم ببحر من الحديد على جسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى ففزتم بها والضجر يقرع الضجر
أخذتم على الإفرنج كل ثنية وقلتم لأيدي الخيل مرّي علي مرّي

لقد عاصر عمارة معظم الأحداث التي عاشتها مصرخلال تلك الحقبة وتفاعل معها بلسانه وما أوتي من موهبة شعرية جعلته "...لا يلحق شأوه في هذا الشأن..."[١]، وعلى الرغم من أنه استخدم تلك الموهبة للتقرب إلى رجال الدولة الفاطمية ليجني المزيد من عطاياهم؛ فإن ذلك لا يعني أن ما قاله من شعر في مدح جهود المتصدين للهجمات الصليبية من الوزراء والقادة ابتداءً بآل رزيك وانتهاءً بآل أيوب - خلال وزارتهم للخليفة الفاطمي العاضد - لا يخلو من عاطفة صادقة، وإدراك للخطر الذي يتهدد الأمة من الوجود الصليبي في المنطقة وأطماعهم في مصر، وأكبر دليل على ذلك تلك الأبيات التي ابتهل بها إلى الله سائلاً إياه أن يحفظ الأمة من خطر الكفار يقول فيها[٢]:

يا رب إني أرى مصرًا قد انتبهت لها عيون الأعادي بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقيةً وأحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونًا نستجير به من فتنة يتلظى جمر رقدتها

ولا نعلم بالتحديد الظروف التي قال فيها عمارة تلك الأبيات، إلا أنه من الواضح أن قصده من كلمة "فتنة" أن هناك عدم استقرار في الحكومة الفاطمية، وصراعًا على السلطة أدى إلى طمع الأعداء (الصليبيين) في

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ٢٩٣.
(٢) عمارة: النكت، ص١٩٠.

البلاد، وهذا ينطبق بالفعل على المدة التي تولى فيها شاور الوزارة وصراعه مع ضرغام عليها، ثم تعاونه مع الصليبيين ضد قوات نور الدين التي أعادته إلى الوزارة، وفي ذلك يقول عمارة "...ولم يُرَبّ أحدٌ رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح - رزيك - ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وشاور هو الذي أطمع الإفرنج والغُز في الدولة..."(١).

وقبل أن نختم حديثنا عن عمارة لا بد أن نتناول حادثةً كانت السبب في اهتمام المؤرخين بعمارة أكثر من كونه فقيهًا وشاعرًا، ألا وهي ما عرف في المصادر التاريخية بـ"المؤامرة على صلاح الدين"، التي عدت موقفًا سلبيًا من الحروب الصليبية كادت تقضي على حلم الوحدة الإسلامية نهائيًا، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه بعد أن قام صلاح الدين بالخطبة للخليفة العباسي بمصر معلنًا انتهاء حكم الفاطميين ثارت ثائرة من بقي من رجال الدولة الفاطمية، الذين لم يكونوا ليسلموا لصلاح الدين ببساطة فيضيع منهم المجد والثراء الذي عاشوا في ظله والنفوذ والسلطة التي تمتعوا بها خلال حكم الفاطميين، إلا أنه نظرًا للقوة العسكرية الضاربة التي كان يمتلكها صلاح الدين والتفاف إخوته من حوله يساندونه ويؤيدونه، صار من الضروري على هؤلاء أن يضمنوا لأنفسهم سندًا عسكريًا يضمن لهم التغلب على صلاح الدين والقضاء على دولته النامية، وعلى الفور قام زعماء المؤامرة والمدبرون لها بالاتصال بكل الناقمين على حكم صلاح الدين والمتضررين منه، فاتسعت دائرة المؤامرة لتشمل شيعة الفاطميين ورجال دولتهم، وبقايا جندهم من المصريين والسودان الذين

(١) عمارة: المصدر السابق، ٨٨.

سبق لصلاح الدين أن قضى على معظمهم، وحاشية القصر، بل حتى جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده اشتركوا في المؤامرة[١]، وعلى الرغم من كثرة الأطراف الذين اشتركوا في المؤامرة فإن الرؤوس المدبرة لها انحصرت في الأسماء الآتية:

١- أبو القاسم هبة الله بن عبدالله بن كامل المعروف بالفضل بن الكامل، قاضي الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بفخر الأمناء، وكان عالمًا أديبًا شاعرًا.

٢- ابن عبدالقوي، وهو داعي الدعاة والمؤتمن على دفائن القصر الفاطمي.

٣- القاضي العويرس، ناظر الديوان وكاتب السر.

٤- عبدالصمد الكاتب، أحد أمراء المصريين.

٥- عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي اليمني، الذي كان عضوًا فاعلاً في ذلك المخطط حتى قيل إنه "...كان من أكابر الدعاة إليه والمحرضين عليه..."[٢].

ففي نهاية سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م) وبينما كان صلاح الدين غائبًا عن مصر في حملة عسكرية على حصن الكرك الذي يهدد الطريق بين مصر والشام؛ شرع المتآمرون في تنفيذ خطتهم فأرسلوا إلى الإفرنج في فلسطين وصقلية يطلبون دعمهم العسكري للقضاء على صلاح الدين ودولته في مصر

(١) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٩- ٢٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢/ ص٢٨٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩٢- ٢٩٣.

لقاء "شيء بذلوه لهم من المال والبلاد"، كما أرسلوا إلى الحشاشين في بلاد الشام لينضموا إليهم في مؤامرتهم لا سيما أن الدعوة واحدة، إلا أن عودة صلاح الدين المفاجئة بسبب وفاة والده نجم الدين جعلت المتآمرين يدركون ضرورة حرمان صلاح الدين من قواته الضاربة(١)، وهنا جاء دور عمارة من خلال تشجيعه لتوران شاه أخي صلاح الدين وذراعه الأيمن على ضم اليمن إلى الدولة الأيوبية كما تناولنا في الفصل الثاني من هذا البحث، فجاءت أبيات عمارة ووصفه المملكة اليمنية لتقطع تردد توران شاه وتجعله يخرج على رأس جزء كبير من جيش صلاح الدين إلى اليمن، فخلا الجو للمتآمرين للقضاء عليه بفضل عمارة حتى قال الأخير: " وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفًا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه من بعده"(٢).

وقد بلغ من ثقة المتآمرين بنجاح خطتهم أن شرعوا في توزيع المناصب فيما بينهم، فعينوا الخليفة والوزير والحاجب وداعي الدعاة وقاضي القضاة والأمراء، حتى أن بني رزيك وبني شاور اختلفوا حول من يتولى الوزارة من البيتين(٣)، إلا أنهم وقعوا في خطأ قاتل على الرغم من دقة خطتهم، وهو إشراكهم بعض رجال صلاح الدين في مخططهم، ولم يضعوا في الحسبان احتمال أن يكون ولاء هؤلاء أو أحدهم أكثر رسوخًا من المكاسب التي سيجنونها في ظل الدولة الفاطمية الجديدة، وهو بالفعل ما حدث، إذ دخل

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، مج٧/ ص٢٣٩؛ ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٢/ ص٢٩٢.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٤٠ .
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه، مج٧/ ص٢٤٠؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص٢٩٢.

في الأمر الشيخ زين الدين علي بن نجا المعروف بالواعظ[١]، الذي ما إن أحاط بتفاصيل المؤامرة وأطرافها حتى بادر على الفور إلى إبلاغ صلاح الدين الذي أمره بملازمتهم وإبلاغه بتحركاتهم أولاً بأول، وفرض عليهم رقابة وعلى كل من يتصل بهم من النصارى خاصة، حتى إذا تأكد بالدليل الواضح من خيانتهم أمر بالقبض على المقدمين في هذه المؤامرة، وأسفر التحقيق معهم عن اعترافهم بفعلتهم، فاستفتى العلماء في ذلك، فأفتوا بقتلهم جزاءً لخيانتهم وتآمرهم مع أعداء الأمة، فتم إعدام عمارة ورفاقه في ١٢ رمضان سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)[٢].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا اشترك عمارة في تلك المؤامرة؟ وما الأسباب التي دفعته إلى ذلك؟ أهو الولاء للمذهب الشيعي، أم طمعًا في السلطة والنفوذ، أم هو الكره لصلاح الدين؟

لقد أثار موقف عمارة الأخير- الذي ختم به حياته - حيرة عدد من المؤرخين، فابن خلكان وابن كثير يعللان ذلك بولاء عمارة السياسي للفاطميين وإخلاصه لهم، كونهم أولياء نعمته ومن تولوه بالعطايا والإكرام على الرغم من أن عمارة ظل حتى وفاته سنيًا شافعيّ المذهب[٣]. وأما الجَندي فإنه يشير إلى اختلاف المصريين حول موقف عمارة من الفاطميين وهل دخل في

(١) الشيخ زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ، ولد بدمشق، ونشأ بها، وقدم بغداد مرارًا، انتقل إلى مصر قبل وفاته، وحدَّث بها، توفي سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٢/ ص٥٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص٢٣٩- ٢٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٩٢- ٢٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج٣/ ص٤٣٣؛ ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٢/ ص٢٩٢- ٢٩٣.

مذهبهم أم بقي على مذهبه، ولكنه في النهاية أيّد رأي أحد فضلاء المصريين - حسب وصفه - الذين التقى بهم بأن عمارة دخل في مذهب الفاطميين ومات عليه، وأن أشعاره في رثائهم والدعاء على من أزال ملكهم بالهلاك ألّبت عليه صلاح الدين وعلماء مصر الذين اتهموه بالزندقة وأباحوا دمه لأبيات قالها[١]، فأمر صلاح الدين بإعدامه[٢]، وإلى ذلك الرأي يذهب بامخرمة أيضًا[٣].

وقبل أن نأخذ بأحد الرأيين وجب علينا أن نستمع إلى ما ذكره عمارة في كتابه (النكت) الذي يعد أشبه بمذكرات شخصية له، إذ يورد عمارة القصة الآتية[٤]: " . . .وكانت تجري بحضرته (الوزير طلائع بن رزيك) مسائل ومذاكرات، ويأمرني بالخوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل ﴿فَلَا نَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [٥]، ونهضت، فخرجت، فأدركني الغلمان، فقلت: حصاة يعتادني وجعها، فتركوني، وانقطعت في منزلي أيامًا ثلاثة، ورسوله في كل يوم والطبيب معه [كذا]، ثم ركبت بالنهار، فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء، فاستوحش من غيبتي، وقال: أخيرًا؛ فقلت: إني لم يكن بي وجع وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا فلا وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة، فعجب من هذا، وقال: سألتك بالله ما الذي

---

(١) يقصد البيت الذي قال فيه:
وكان أول الأمر من رجل سعى إلى أن دعوه سيد الأمم
(٢) الجندي: السلوك، ج١/ ص٣٦٢. (٣) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص١٧٠.
(٤) عمارة: النكت، ص٤٣- ٤٦. (٥) سورة النساء، آية: ١٤٠.

تعتقده في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم، وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبةٌ عليه، ثم قرأت عليه قول الله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ (١)، فضحك وكان مرتاضًا حصيفًا قد لقي في ولاياته فقهاء السنة وسمع كلامهم، ومما يلحق بهذا الفصل أني لم أشعر في بعض الأيام حتى جاءتني منه رقعة فيها أبيات بخطه ومعها ثلاثة أكياس ذهبًا، والأبيات قوله:

قل للفقيه عمارة يا خير من ... أضحى يؤلف خطبةً وخطابا
إقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل حطةً وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد ... إلا لدينا سنةً وكتابا
وعلى أن يعلو محلك في الورى ... وإذا شفعت إلي كنت مجابا
وتعجل الآلاف وهي ثلاثةٌ ... صلةً وحقك لا تعد ثوابا

فأجبته مع رسوله بهذه الأبيات:

حاشاك من هذا الخطاب خطابا ... يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم ... معمور معتقدي وصار خرابا
ودعوتم فكري إلى أقوالكم ... من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشدد يديك على صفاء محبتي ... وامنن علي وسدّ هذا البابا

وتقدم لنا هذه القصة دليلاً واضحًا على مدى صلابة عمارة وتمسكه بمذهبه، وصراحته في التعبير عن رأيه، وعدم استجابته للإغراءات المادية، وكان من الواضح أن رسالة الوزير لا تعدو مجرد حيلة وتجربة لكشف حقيقة رأي عمارة وتمسكه بمذهبه، أو أن كل ذلك نوعٌ من الدعاية لنيل المكاسب.

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٠.

وبناءً على ذلك فإننا نخلص إلى أن السبب الرئيس لانضمام عمارة إلى صفوف المتآمرين هو ولاء عمارة السياسي للفاطميين، وانقطاع ما كان يصل إليه من عطايا وهبات في زمنهم، فقد كانت عطاياهم وهباتهم تجعله يعيش في رغدٍ من العيش، فضلاً عما فرضه له شاور من عطاء (راتب) على الرغم من اعتزاله عمل الشعر[١]، فلما تولى صلاح الدين الوزارة مدحه عمارة بغرر القصائد، مضمنًا إياها شكواه من تغير حال الدنيا وقلة ذات اليد وأن عطايا الوزير نالت كل الناس إلا عمارة، مثل قوله:

حتى كأن بني أيوب ما علموا بأنني في زماني أفصح العرب
ضاقت علي لياليهم وقد رحبت للوافدين إلى الساحات والرحب[٢]

ومن قصيدة عظيمة كتب بها إلى الملك الناصر صلاح الدين يحكي قصته وسوء حاله، سماها "شكاية المتظلم ونكاية المتألم"، نورد المقتطفات الآتية:

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي لنفثة مصدور وأنّة موجع
تقاصر بي خطب الزمان وباعه فقصّر عن ذرعي وقصّر أذرعي
وأخرجني من موضع كنت أهله وأنزلني بالجود في غير موضع
بسيف ابن مهدي وأبناء فاتك أقضّ من الأوطان جنبي ومضجعي
فيممت مصرًا أطلب الجاه والغنى فنلتهما في ظل عيشٍ مُمّنع
وفزت بألف من عطية فائز مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرقتني من يدٍ عاضدية سرت بين يقظى من عيون وهجَّع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي

(١) عمارة: النكت، ص ٨٦.
(٢) عمارة: المصدر نفسه، ص١٧٩.

وليست أيادي شاور بذميمة ولا عهدها عندي بعهد مضيع
مذاهبهم في الجود مذاهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه من الحكم المصغي إلي فأدعي
أقمت لكم ضيفًا ثلاثة أشهر أقول لصدري كلما ضاق وَسِّع
أعلل غلماني وخيلي ونسوتي بما صغت من عذر ضعيف مرقع
وضايقني أهل الديون فلم يكن سوى بابكم منه ملاذي ومفزعي
فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي
ألا ترعني للشافعي وأنتمُ أجل شفيع عند أعلى مشفّع
ونصري له في حيث لا أنت ناصرٌ بضرب صقيلات ولا طعن شرَّع
وإني لما أوضحته من زعازع عصفن على ديني ولم أتزعزع
وردي ألوف المال لم ألتفت لها بعيني ولم أحفل ولم أتطلع
سألتك في دين لياليك سقنه وألزمنه كارهًا غير طيع
وهاجرت أرجو منك إطلاق راتب تقرر من أزمان كسرى وتبع
وليتك فيمن أطلق الشرق مطلعي لتعلم نبعي إن عجمت وخروعي[1]

لقد كشفت لنا هذه القصيدة التي تعد من أواخر ما نظمه عمارة من أبيات الأشياء الآتية:

أ - الرفاهية التي كان يعيشها عمارة في ظل الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، واستمرار العطاء عليه منهم.

ب - تدهور أحواله بعد تولي صلاح الدين الوزارة لأنه صرف أموال الدولة في بناء المدارس ومرتبات الفقهاء وفي ذلك يحتج عماره بأنه فقيه.

(١) عمارة: النكت، ص٢٨٧- ٢٩١.

ج - ثبات عمارة على مذهب أهل السنة عمومًا والشافعي خصوصًا وعدم استجابته للمغريات المادية كافة التي قدمت له.

د - قطع صلاح الدين الراتب المقرر له من أيام شاور.

هـ - عدم إتاحة الفرصة له ليظهر مواهبه في دولة الوزير صلاح الدين وإيجاد مكان في مجلسه.

وهكذا ولت الأيام ظهرها لعمارة، وتدهورت بعد عزٍ وغنى إلى أن أطاح صلاح الدين بالحكم الفاطمي نهائيًا سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، الأمر الذي وضع عمارة وأمثاله من صنائع الفاطميين أمام الأمر الواقع، ودفعهم إلى العمل معًا ليقضوا على دولة صلاح الدين ويحيوا الدولة الفاطمية من جديد، فيستعيدوا أيام العز والجاه والغنى حتى لو كلفهم ذلك مد أيديهم إلى الصليبيين - الذين كان عمارة يدعو عليهم - على أساس أنه نوع من السياسة وتبادل المصالح - في نظرهم - لا خيانة للأمة الإسلامية عبر التواطؤ مع عدوها.

ثانيًا- الإمام القدوة العابد الواعظ أبو عبدالله محمد بن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي.

اختلف حول تاريخ مولده بين سنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)[(١)]، وسنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)[(٢)]، قدم بغداد مع بداية القرن السادس الهجري فوعظ

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٣١٧.
(٢) ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر - بيروت، ط١- ١٣٥٨هـ، ج١٠/ ص١٩٧- ١٩٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٦٠.

بها، وكان ضليعًا في علوم اللغة والنحو خاصة، فاشتغل بالتدريس والتأليف حتى قيل إن مؤلفاته بلغت مائة مصنف في مختلف فنون العلم[١]، وقد تزامنت هجرته إلى العراق مع تزايد حدة الصراع في تهامة بين أبناء جياش بن نجاح والحرب الأهلية التي قامت بينهم، فوجد في بغداد الأمان والاستقرار النسبي الذي ينشده، وقد اشتهر بين الناس بصبره على الفقر وأنه كان لا يشكو حاله لأحد، فمن ذلك ما رواه الوزير ابن هبيرة[٢] وكان يتتلمذ على يديه: "جلست معه [الزبيدي] من بكرة إلى قريب الظهيرة وهو يلوك شيئًا فسألته، فقال: نواة أتعلل بها لم أجد شيئًا"[٣]، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان يقول الحق ولو كان مرًا لا تأخذه في الله لومة لائم[٤].

لعل هذا هو السبب في انتقاله من بغداد التي ذاع صيته بها إلى دمشق

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢/ ص٣١٧؛ السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، د.ط - د.ت، مج١/ ص٢٦٣- ٢٦٤.

(٢) الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة: تولى الوزارة للمقتفي ثم لابنه المستنجد، وكان قد قرأ القرآن وسمع الحديث، وله معرفة جيدة بالنحو واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وقد صنف كتبًا جيدة مفيدة مثل: الإفصاح، وكان فقيرا لا مال له حتى دخل في خدمة الخلفاء العباسيين، فكان من أحسن وزرائهم سيرة وأبعدهم عن الظلم وأخلصهم لبني العباس، فقد سانده في صراعهم مع سلاطين السلاجقة حتى صفي العراق لبني العباس ليس للسلاجقة معهم فيه حكم، توفي سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٦/ ص٢٣٠- ٢٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٦٧- ٢٦٨.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج٦/ ص٢٦٧٥.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠/ ص ١٩٨؛ ياقوت: المصدر نفسه، ج٦/ ص٢٦٧٥؛ الذهبي: سيرأعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٣١٧.

سنة (٥٠٦هـ/ ١١١٠م) التي كانت آنذاك تحت حكم الأتابك ظهير الدين طغتكين (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م - ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) الذي كان له دور بارز في التصدي للصليبيين والنهوض بحركة الجهاد ضدهم، ولكنه لم يكن يختلف عن حكام عصره في تقديمه لمصلحته على مصلحة الأمة، فانغمس مثل غيره من أمراء المسلمين في سلسلة من المؤامرات لأجل الحفاظ على سلطانه، وكانت أهم المآخذ على طغتكين أمران:

الأول - إيواؤه الإسماعيلية بعد أن كانوا متخفين في دمشق، فبالغ في إكرامهم اتقاء شرهم حتى أعطاهم قلعة بانياس ما زاد من نفوذهم وتسلطهم وأذاهم للناس(١).

الثاني - شبهة اشتراكه في قتل الأمير مودود بن التونتكين صاحب الموصل والتآمر مع الحشاشين لقتله سنة (٥٠٧هـ/ ١١١٣م)، وكان مودود قد قاد حملة بأمر السلطان السلجوقي للتصدي للصليبيين والقضاء عليهم، وقد طالب بقية أمراء المسلمين في إقليم الجزيرة وديار بكر وبلاد الشام بالانضمام إليه في حملته الكبيرة التي استمرت قرابة سبع سنين حقق خلالها كثيرًا من الانتصارات على الصليبيين، وكان الأتابك ظهير الدين طغتكين من أكبر المساندين له في حملته تلك(٢).

إلا أنه مع تنامي سمعة مودود وذيوع صيته سرت الإشاعات بأنه يريد ضم الشام كله إلى سلطانه، ما أثار مخاوف أمراء الشام منه وعلى رأسهم

(١) الذهبي: المصدر السابق، ج١٩/ ص٥٢٠؛ الصلابي: دولة السلاجقة، ص٦٣٤.
(٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص١٩٠؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج١/ ص٣٦٠- ٣٦٣.

طغتكين، الذي كان بجوار مودود في أثناء خروجهما من باب جامع دمشق بعد صلاة الجمعة عندما هاجم أحد الحشاشين مودود وقتله، في حين لم يصب طغتكين بأذى[١].

ومهما تكن حقيقة التهمة الأخيرة الموجهة إلى طغتكين فإن شبهة اشتراكه في اغتيال بطل عظيم من أبطال الجهاد ضد الصليبيين، وأحد المؤسسين لفكرة الجبهة الإسلامية الموحدة، أثارت غضب قطاع واسع من الناس، من بينهم الإمام محمد بن يحيى الزبيدي الذي وقعت الحادثة بعد عام من انتقاله من بغداد إلى دمشق، فما كان من ذلك الشيخ الذي عرف بقول الحق وإن كان مرًا إلا أن وعظ طغتكين بما يمليه عليه النصح لله ورسوله ولأولي الأمر، فلم يحتمل طغتكين صراحته في وعظه، فضلاً عن خشيته أن يؤلب الناس عليه بفصاحته وقوة بيانه، فأمره بالخروج من دمشق[٢].

ومع ذلك فان علاقة طغتكين بالباطنية ظلت تؤرق مضجع الغيورين من أبناء الأمة الإسلامية من الأمراء والعلماء، الذين أوصلوا القضية إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله، الذي بدوره أرسل رسولاً إلى طغتكين في أمر الباطنية وإيوائه إياهم، ولم يكن ذلك الرسول إلا الشيخ محمد بن يحيى

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٢/ ص١٩٠؛ وقد تناول الصلابي في "دولة السلاجقة " أقوال المؤرخين حول اتهام طغتكين بالتواطؤ مع الحشاشين لاغتيال مودود؛ انظر: الصلابي، دولة السلاجقة، ص٦٣٢- ٦٣٤.

(٢) ابن منظور (الإمام محمد بن مكرم): مختصر تاريخ دمشق، تح: إبراهيم صالح، دار الفكر - دمشق، ط١- ١٩٨٨م، ج٢٣/ ص٣٣٧- ٣٣٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ص٣١٧.

الزبيدي[١]، الذي يبدو أن علاقته بالوزير ابن هبيرة كان لها دور في إثارة الخليفة العباسي وتكليف الشيخ محمد بن يحيى بحمل رسالة الخليفة إلى طغتكين، ولم تذكر المصادر التاريخية نتيجة تلك السفارة وتفاصيلها، ولكن المعروف أن الشيخ محمد بن يحيى عاد إلى بغداد وقضى فيها بقية حياته إلى أن توفي سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠)[٢].

ثالثًا- الشيخ عبدالرحمن اليمني:

لم تذكر المصادر شيئًا عنه غير كونه من أهل اليمن، وأنه كان شيخًا جليلاً ورعًا فاضلاً منقطعًا عن الناس، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب يرسل إليه بالمال فلا يقبله[٣]، وكان الشيخ عبدالرحمن يقيم بالمنارة الشرقية بجامع دمشق، وأنه توفي سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٢م)، وكان معروفًا بقول الحق عند الملوك وغيرهم، فمن ذلك أنه ذهب مع جماعة من العلماء إلى السلطان العادل للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين إثر هجوم شنه الصليبيون على بعض بلاد المسلمين - لم يحدد المصدر السنة - وكان الشيخ عبدالرحمن أبلغ الجماعة كلامًا في ذلك[٤].

---

(١) الذهبي: المصدر السابق، ج٢٠/ ص٣١٧؛ بامطرف (محمد عبدالقادر): جامع شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم، الهيئة العامة للكتاب - صنعاء، د.ط - ١٩٩٨م، ص٥٥٩ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، مج٧/ ص١٥١؛ الذهبي: المصدر نفسه، ج٢٠/ ص٣١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص٢٦٠.

(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٣٦.

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه، ص١٣٦.

المبحث الثاني

نماذج محلية لمواقف أهل اليمن

تكاد مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي لا تقدم شيئًا عن الجهود الفردية لأهل اليمن في نصرة إخوانهم المجاهدين في مصر وبلاد الشام، أو التفاعل الشعبي ضد ذلك الخطر الذي يهدد كيان الأمة الإسلامية كما حدث في عدد من الأمصار مثل بغداد ودمشق[(١)]، فبعد موقع اليمن الجغرافي عن مواطن تلك الأحداث، وعدم اطلاع اليمنيين على تفاصيل ما يجري في مصر وبلاد الشام، فضلاً عن انشغال اليمنيين بمشاكلهم الداخلية والصراع فيما بينهم؛ كل تلك الأسباب أدت إلى خفوت صوت اليمن خلال تلك المرحلة من تاريخ الأمة.

ومع ذلك فقد سجلت لنا بعض المصادر مواقف فردية ليمنيين تجاوزوا العراقيل السابقة، وقدموا إسهاماتهم في نصرة إخوانهم المجاهدين كل حسب استطاعته، وفيما يلي سنتناول عددًا من تلك المواقف التي توفر لها من يدونها، والتي تعد بالتأكيد مثالاً على حالات أخرى لم يحالفها الحظ أن تدون.

أولاً- الشيخ الجليل أبو محمد سفيان بن عبدالله الأبيني:

لم تذكر المصادر شيئًا عن سنة ولادته ونشأته وتحصيله العلمي سوى أنه كان فقيهًا عالمًا فاضلاً عارفًا، اشتغل في بداية حياته بالعلم اشتغالاً

(١) ابن الأثير: الكامل، مج١/ ص٣٨٣- ٣٨٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/ ص١٦٩- ١٧٠؛ الصلابي: دولة السلاجقة، ص ٥٨٨- ٥٩٨.

كليًا، ثم ترك ذلك واشتغل بالتصوف، وتناقل الناس قصصًا كثيرة عن كراماته وأخباره مع العلماء والأمراء[١]، وما يعنينا في هذا المقام هو رواية تفيد بأن الشيخ سفيان سافر إلى مصر ليحضر الجهاد بدمياط[٢].

ولم تذكر لنا تلك الرواية سنة الذهاب إلى مصر أو حتى تاريخ وفاته في لحج، وإنما من الممكن أن نستنتج أن ذهابه إلى مصر كان في أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٥هـ/ ١٢١٧م - ٦١٩هـ/ ١٢٢٠م) أو الحملة السابعة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م - ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وكلاهما استهدفت مصر واحتلت دمياط، وتعطينا تلك الرواية دلالة واضحة على حماسة أهل اليمن واستعدادهم للمشاركة مع إخوانهم المسلمين في جهادهم ضد الصليبيين، ويحتمل أن يكون هناك آخرون ممن تمكنوا من المشاركة بأنفسهم في الجهاد ضد الصليبيين، ولكن المصادر لم تسعفنا بذكرها.

ثانيًا- الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة:

عاشت دولة الأئمة الزيديين طوال تاريخها في صراع ضد منافسيهم من القوى القبلية والسياسية المجاورة لهم، وضد بعض الفرق التي عدُّوها منشقة عنهم، وحتى بعضهم ضد بعض حين كان يظهر في وقت واحد أكثر من إمام، وقد عد أئمة الزيدية الحروب التي خاضوها ضد خصومهم ومنافسيهم نوعًا من الجهاد لترسيخ دعائم حكمهم[٣]، ويمكن القول إن

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص٩٣.
(٢) الشرجي (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبداللطيف): طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، الدار اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء، ط١- ١٩٨٦م، ص ١٤٨.
(٣) زيد: تيارات، ص١٥٦، ١٩٠- ١٩٧.

رسالة ابن النساخ إلى الخليفة العباسي يشكو فيها الإمام المنصور وفتكه بالمطرفية، تبين لنا مدى انشغال أطراف الصراع في اليمن بمشاكلهم عن الصراع الدائر في بلاد الشام ضد الصليبيين، إذ يقول ابن النساخ في جزء من قصيدته التي تضمنتها رسالته:

فدع عنك أرض الروم وانهض لمكة ... فسيفك فيه مضرب وذباب
فما في قتال الروم وهذه ... بأظهركم ما في الكلام كذاب[1]

وتخبرنا هذه الأبيات بمدى انغماس الزيدية في الصراع ضد منافسيهم ومخالفيهم، حتى صار كل طرف يرى أن حربه تلك هي نوع من الجهاد لا يقل عن الجهاد الذي يخوضه المسلمون في مصر وبلاد الشام ضد الصليبيين، وبالنسبة إلى الإمام المنصور فقد سمع برسالة ابن النساخ، فأرسل بدوره رسالة إلى الخليفة العباسي تضمنت قصيدة قال فيها:

يا أهل بغداد إن الله سائلكم ... عن ملة الدين إذ ألحدتم فيها
أنتم عيون بني الأيام قاطبة ... في النايبات ولكن القذى فيها
قد اشتملتم على عمياء مظلمة ... لا يهتدي لنجوم الحق هاديها
إن الخلافة أمر هائل خطر ... صعب مسالكها صعب مراقيها
لو كان ما أنتم عليه على سننٍ ... قام المريض إلى المرضى يداويها
أيلزم الحد محدود بكم وإلـ ... ـه الناس أم يرشد الضلال مغويها
إن الخليفة من يهدي لسنته ... حتى تضيء له الظلماء ساريها
ولا يميل إلى لهوٍ ولا لعبٍ ... إلا باسم العوالي في مجاريها
يجري الشريعة مجراها الذي وضعت ... عليه يحل الدار بانيها

(١) الخزرجي: العسجد، ص١٣٥- ١٣٦؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٢٦٦.

خليفة الله ترضي الله سيرته وتطهر الأرض طرًا من مخازيها
ونحن في غمرات الشك فلك هدى ينجي ويهلك عند الموج قاليها
نحمي حمى الدين بالجرد العتاق وبال بيض الرقاق روس الصد فيها
وكم من فتى يلتقي الأبطال مبتسمًا منا ويطعنها شزرًا ويرديها
إن الإمام الذي يبدو لطالبه كالشمس لا يستطيع الغيم يخفيها
إذا دجت ظلمات الخطب قام لها مشمرًا ويجلي أو يجليها[1]

وقد أوضح الإمام المنصور من خلال هذه القصيدة وجهة نظره حول ما تواجهه الأمة من تحديات، إذ استفتح القصيدة بالعتاب والإنكار على أهل بغداد، والمقصود بهم (الخلافة العباسية) قلب بلاد الإسلام ورمز وحدته، واستغل الفرصة ليذكر العباسيين بواجبات الخليفة نحو الأمة والدين "إن الخلافة أمر هائلٌ خطر"، معرضًا بالوضع الذي آلت إليه الأمة بسبب ضعف الخلافة العباسية وتخاذلها عن القيام بواجبها تجاه رعاياها، مشيرًا إلى تمرس آل البيت الزيدية في أمور الإمامة والذود عن حمى الدين.

وعلى الرغم من أن الغرض الأساسي من تلك القصيدة هو غرض سياسي بقصد إحراج الخلافة العباسية وصرفها عن التدخل في شئون اليمن؛ فإنها في نفس الوقت تدل على إلمام الإمام المنصور واطلاعه على الأوضاع التي تعيشها الأمة، وهو ما استخدمه لبيان أحقيته بالخلافة - وهو الإمام العالم المجاهد - من العباسيين المنصرفين إلى اللهو والدعة، ليوصل رسالةً واضحةً إلى الناس بضرورة قيام خلافة قوية تستطيع الذود عن الإسلام والمسلمين.

(١) المحلي: الحدائق، ج٢/ ص١٧٤- ١٧٥.

ثالثًا: نموذج لدور المرأة في دعم الجهاد ضد الصليبيين:

على الرغم من شحة المعلومات التي تقدمها المصادر فإنه كان للمرأة في العصر الرسولي دورٌ في دعم الجهاد ضد الصليبيين، فقد ذكر أن والدة السلطان المظفر[١] قد تبرعت بكمية كبيرة من التوابل وأرسلتها إلى القاهرة إسهاما منها في تمويل الجيش المملوكي في حربه ضد الصليبيين[٢]، وعلى الرغم من أن تلك المرأة لم تكن يمنية الأصل فإنها كانت زوجةً لسلطان اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول، وأمًا للسلطان من بعده المظفر، فعاشت حياتها في اليمن، واختلطت بنساء اليمن، وإنه لمن حسن الحظ أن موقعها من رأس السلطة في الدولة الرسولية أتاح لها الإطلاع على الأحداث المحيطة في بلاد الإسلام، فتوفرت لها فرصة الإسهام في دعم جهاد المسلمين في مصر والشام ضد الصليبيين، ومن يدري لعلها أشركت في مبادرتها تلك بعض معارفها من النساء، سواء من البيت الرسولي أم من سواه.

(١) يذكر الجندي أن والدة كلًا من السلطان المظفر وشقيقته الدار الشمسي هي أم ولدٍ تركية كانت لأبيهما؛ انظر: الجندي، ج٢/ ص٥٤١.

(٢) صادق (نهى): صورة المرأة اليمنية في الدراسات اليمنية، تر: أحمد جرادات، المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية - صنعاء، ط١- ١٩٩٧م، ص١٩٦.